الدعوة الإسلامية والتحديات المحلية في غربي أفريقية

د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم

منذ إشراقة الدعوة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية وهي تتعرض لهجمات عنيفة ومتلاحقة ، لم تترك للدعوة فرصة إلا ووقفت أمامها ، لكن هذه القوى سواء من عرب الجزيرة أم من الفرس أم البيزنطيين أم المغول أم الصليبيين أم حتى الأسبان والبرتغال لم تستطع أن تنال من هذه الدعوة التي انطلقت مواكبها ، ورفرفت أعلامها على هذه المساحات الشاسعة من العالم الإسلامي ، وأثبت المسلمون أنهم رواد حضارة ، وأنهم مستعدون للتحدي والمواجهة

وكان غربي إفريقية من المجالات التي ظهر فيها هذا التحدي بشك سافر، ووجدت فيه الدعوة عقبات كبيرة، لكن الإسلام استطاع أن يصمد أمام هذه التحديات، واستجابت له القوى المحلية، ودخل الناس أفواجًا في الدين وتأسست دول إسلامية لا تزال تنعم بالإسلام وحضارته، وصار الإسلام يمثل العصر الذهبي لإفريقية.

وسوف نحاول في هذا البحث دراسة التحديات التي واجهت الدعوة حتى ظهور الحركة الإصلاحية الكبرى في القرن التاسع عشر وأثر هذا التحدي على مستقبل المنطقة.

لقد شهدت منطقة غربي إفريقية عبر قرون خلت استجابة قوية للدعوة الإسلامية التي استطاعت أن تؤسس ممالك إسلامية وتقيم حضارات زاهرة لا تزال تقوم بدورها في نشر الإسلام حتى يومنا هذا.

وبنفس القدر الذي صارت فيه الاستجابة القوية كان التحدي واضحًا، ووجد المصلحون أنهم أمام عقبات كثيرة كان لابد من تذليلها قبل بسط لواء الإسلام على ربوع هذه الجهات.

والمقصود بغربي إفريقية في دراستنا هذه تلك المنطقة الممتدة بين خطي عرض ٩° و ١٧° شمالا والتي تقدر مساحتها بحوالى ٤ , ٢ مليون ميل مربع، والتي تعد جزءًا من السودان الغربي الذي يمتد في القارة الأفريقية من ساحل السنغال غربا حتى حدود نيجيريا وبحيرة تشاد شرقا وأطلق العرب على هذا الإقليم بلاد السودان على عكس بلاد البيضان التي تعني شمالي إفريقية. وحمل هذا الإقليم مشعل الحضارة واحتضن الدعوة الإسلامية، وسهّل انتقال الجماعات سواء من التجار أو الدعاة كما يسر على شعوب المنطقة بناء دول إسلامية أسهمت بقدر كبير في ترسيخ أسس العقيدة بين بدو الصحراء(١).

وسوف نحاول من خلال هذا العرض دراسة هذه الدعوة الإسلامية التي تركت بصماتها في مجتمعات غربي القارة، ولا تزال آثارها باقية حتى اليوم، ونقطة انطلاقتنا ما هي إلا جهد متصل، سداه التحليل، ولحمته الوصف، بغية إبراز خصائص هذه الدعوة المتميزة، وتحديد ما أسدته من خدمات للتراث الإنساني عبر قرون طويلة، ولا تزال بصماتها ماثلة للعيان في كثير من أرجاء المعمورة.

ومن خلال بعض المحاور الرئيسة يمكن أن نصل إلى بناء منهجي، وتصور معرفي يحاول فهم هذا الجهاد الإسلامي في غربي القارة، والتحديات التي واجهته في كل مراحله وحتى يومنا هذا، وتتمثل هذه المحاور فيما يلي:

أولا : كيف انتقلت الدعوة الإسلامية إلى غرب أفريقيا والتحديات التي واجهتها.
ثانيا : الممالك الإسلامية ودورها في نشر الدعوة الإسلامية.
ثالثا : جهود المصلح عثمان بن فودى في نشر الدعوة والتحديات المحلية.
رابعا : الآثار التي خلفتها هذه الدعوة في غرب القارة.

أولاً : باديءَ ذي بدء نقول: إن قصة انتشار الدعوة الإسلامية في غرب القارة ما هي إلا جزء من قصة الحضارة الإسلامية في كل مكان وصلت إليه حيث خضعت لنفس الظروف، وتعرضت للمؤثرات الموجودة في المنطقة، وواجهت مشكلة الالتقاء الثقافي مع هذه الحضارات المحليّة السائدة، مثل الحضارة الإغريقية أو التقاليد المغربية، إضافة إلى بعض التقاليد والعادات الموروثة، وكان على الدعوة الإسلامية أن تواجه كل هذه الثقافات، وأن تصمد أمام هذه التحديات، وأن تتصارع مع هذه الأيديولوجيات وأن تتسرب بينها، وأن تدخل في عمليات من التحدي والاستجابة، ثم تنتقل تدريجيًا من طور الاحتكاك إلى التفاعل معها حتى تصل إلى مرحة الاندماج الكامل وأخيرا السيادة والسيطرة. وظهور الثقافة الإسلامية الجديدة بعد أن تمثلت كل هذه الأفكار المحلية(٢).

ولكن كيف انتقلت الدعوة الإسلامية إلى هذا الجزء من العالم الإسلامي؟ كيف استطاعت أن تجد لها موضع قدم بين الأقوام الزنجية وبين الحضارات الأفريقية داخل السافانا الأفريقية؟

لقد شقت الدعوة الإسلامية طريقها إلى غرب القارة الأفريقية عبر عدة مسالك أهمها - على وجه الإطلاق - الطريق الساحلي عبر شمال أفريقيا حتى بلاد السنغال ثم الانطلاق منه نحو قلب القارة من الغرب. والطريق الآخر مراكب التجارة بين الشمال والجنوب عبر محطات تجارية راسخة ومزدهرة حيث نجح التجار والدعاة في أن يحملوا هذه الدعوة في رحلتهم وتجوالهم هنا وهناك.

وكان هذا الطريق التجاري هو الذي حمل قبائل البربر، وقبائل بني هلال وبني سليم إلى هذه الأصقاع، وساعد هذا على تشكيل أطر ومجتمعات جديدة نقلت الدعوة سلميًّا إلى عمق القارة، ولم تلجأ هذه الجماعات المهاجرة إلى استخدام العنف إلا دفاعا عن أتباعها، ولتثبيت مبادئ الدعوة، ولا إكراه في الدين(٣).

كانت الدعوة الإسلامية قد ازدادت مكانة ووجدت حماسة من خلال جهود المجاهد عقبة بن نافع الذي حمل قبائل الطوارق على الدخول في الدين الإسلامي، واستطاع القضاء على المقاومة المغربية، ولما فرّت القبائل أمامه تعقبها حتى حدود تلمسان وتدفق بقواته في المغرب الأقصى حتى وصل إلى طنجة، وواصل تقدمه حتى مدينة أغمات حاملا لواء الدعوة الإسلامية إلى هذه الأقوام، وظل يواصل المسيرة ويعد الجيوش حتى وصل إلى مدينة نول على ساحل المحيط الأطلسي، وأسس مسجدا في مدينة ماسة(٤).

كان هذا الزحف الإسلامي الكبير قد أدخل الدعوة الإسلامية إلى بلاد السودان الغربي، والممالك الوثنية هناك، لكن شاء الله أن يموت عقبة بن نافع

أثناء صراعه مع جماعات البربر، وباستشهاده أصيبت الدعوة بنكسة مؤقتة، وكادت جهود المسلمين أن تتلاشى في هذه الجهات(٥).

وبعد أن استقامت الأحوال لبني أمية، عادت الفتوحات من جديد، وجاء موسى بن نصير حاملا لواء الإسلام، وانحدر إلى منطقة السوس، واستمرت الدعوة بين المدّ والجزر طوال العصر الأموي لكن توغلها الحقيقي جاء على أيدي الطوارق الذين دخلوا في الإسلام في القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) واستطاعت هذه القبائل أن تشكل حلفا بزعامة قبيلة لمتونة من أجل التوسع جنوبا ونقل الدعوة إلى قلب مملكة غانة الوثنية(٦).

لكن فشلت قبيلة لمتونة في تحقيق هدف المسلمين في الدخول إلى قلب غانة، بل وأصابها الضعف والهوان، وتركت راية الجهاد إلى قبيلة أخرى هي جدالة وزعيمها يحيى بن إبراهيم الذي أدرك بثاقب نظره وخبرته الطويلة في هذه المناطق أن أمر الدعوة لن يتحقق إلا بتوحيد القبائل خلف قيادة مسلمة وتحت زعامة فقيه مثقف يُعَلِّمُ الناس أمور دينهم ويجمعهم على حب الجهاد والتضحية، ووقع اختياره على الشيخ عبد الله بن يسن الذي كان على دراية بالصحراء، ووصل في عام ١٠٤٠م إلى خيام جدالة ليبدأ مهمته في نشر الدعوة(٧).

هاجر الشيخ عبد الله بن يسن جنوبا إلى ديار الملثمين، وأخذ يدعو الناس إلى التمسك بالدين الحنيف، واستقر في جزيرة نائية في مصب نهر السنغال وعاش حياة الزهد والمرابطة وأطلق على أتباعه لقب المرابطين، وشكل هذا الرجل جيلاً جديدًا من المتحمسين للدعوة، كما أحدث وعيا قويًّا بين أتباعه وكوّن جماعة فدائية هدفها القضاء على البدع والأهواء الدنيوية(٨).

وزاد أتباعه، وكثر الناس من حوله وتصدى لمسؤولية نقل الدعوة إلى أكبر

منطقة وثنية في مملكة غانة، ولما آنس في رجاله كل الخير، وأيقن أنه قد وصل إلى مرحلة إعلان الجهاد، خرج من رباطه معلنا كلمة التوحيد، ونشر الدعوة الإسلامية، وصار رباطه في مصب السنغال بمثابة الشرنقة التي تكونت حولها خلايا المجتمع الإسلامي في غربي أفريقيا(٩).

استطاعت قوات الجهاد أن تدخل مملكة غانة الوثنية، وأن تسقط نظام الحكم بها تحت ضربات رجال المرابطين بعد خمس عشرة سنة من الكفاح والنضال (١٠٦١م - ١٠٧٦)، وبسقوط غانة انفتح الطريق أمام الدعوة الإسلامية، وانساب المسلمون في غربي القارة، ودخلت جماعات كثيرة في دين الله أفواجا، وحقق المرابطون أمل المسلمين في دحر معاقل الوثنية والمشركين(١٠).

وأسلم شعب التوكولور، وأشرق نور الإسلام على ربوع غربي أفريقيا، وبدأت المراكز الحضارية تظهر على خريطة المنطقة، فنشأت مدن تمبكت، وجنى، وجاو، وصارت هذه المراكز ركائز الدعوة الإسلامية في غرب القارة، وصار الإسلام يمثل العصر الذهبي لأفريقيا السوداء، حيث أعطاها الدين حضارة قومية إسلامية، وقامت حكومات ونظم إدارية متقدمة، وصار الإسلام قوة دافعة، وطاقة محركة خطت بالحياة الإنسانية في غربي القارة تلك الخطوات عبر مساحة واسعة من التحديات، واستطاع المسلمون مواجهة التحديات المحلية، ودخلوا معها في معارك طاحنة انتهت بانتصار الإسلام والدعوة للتوحيد، ونبذ الشرك، كما أسهمت هذه الجهود في بناء حضارة راسخة تمثلت في قيام دولة مالي الإسلامية ثم دولة صنغى(١١).

ثانيًا: الممالك الإسلامية ودورها في نشر الإسلام:

لقد نجح المسلمون في تأسيس دولة إسلامية على أنقاض مملكة غانة، وفي عام ١٢٣٥م استطاع شعب الماندنجو بقيادة زعيمهم سنديانا أن يضع أسس

هـذه الدولـة الإسلاميـة الفتية وأن يقيم إطـارا إسـلاميًّا قـويا، وأن يـدافع عن الإسلام والمسلمين، وتمكن خلفاؤه من مـواصلة الجهاد، وتوطيـد العلاقات مع العـالم الإسلامي في المشرق وخصـوصًـا في مصر والحجاز، ورحل تجار مـالي إلى المشرق الإسلامي، بل واستقـرت طوائف منهم في مصر ونقلوا التجـارة، وحملوا العلوم من هذه الجهـات، وتجددت الدولة الإسلاميـة، واتسعت رقعتها وقامت بدور بناء في المدّ الإسلامي في غربي القارة(١٢).

لكن الـدولة الإسـلامية انتـابها الضعف، وحلت بها النكبـات وتركت أمـر الجهاد لدولة أخرى هي صنغى التي اتخذت مـركزًا لها في مدينة جاو في منتصف القـرن الخامس عشر واستطاع سني علي أن يـواصل نشر الـدعوة، وأن يـدخل مدينـة تمبكت حـاضرة الثقافـة الإسلامية منـذ عهد المرابطين، وقـامت الـدولة الجديدة بنشر الدعـوة الإسلامية وازدهر الإسلام من جديـد بفضل جهود حكام صنغى الذين أخلصوا للدعوة ودخل خلق كثير في دين الله أفواجا.

استمر هذا التواصل الفكري والاتصـال الحضاري بل والتلاقح الفكري بين غربي أفـريقيا وشمالها مع المشرق الإسـلامي من خلال رحـلات الحج المشهورة، ومن خلال تبـادل العلماء والمفكرين، وعـاش المسلمون في كنف دولة إسـلامية ترعى شريعة الله، وتطبق أسس الدعوة الإسلامية(١٢).

وظل الحال على هذا المنوال حتى واجهـت هذه الدولة تحديًا من نـوع غريب حيث جاءهـا التحدي على أيدي المغـاربة المسلمين، كان التحـدي من المغرب وهو نفس الإقليم الذي حمل الحضارة الإسلامية إلى غربي أفريقيا، جاء التحدي في شكل حملة مغربيـة أرسلها المنصور السعدي سلطـان المغرب إلى دولة صنغى وكان يقودهـا جودار باشا الأسبـاني، واستطاعت هذه الحملة المؤلفـة من أربعة آلاف مقاتل أن تدخل مدينة تمبكت في عام ١٥٩١م، وقضى المغاربة على دولة

صنغي التي كانت توحد بين أقاليم السودان ، وتبسط عليه لواء الأمن والأمان .

كان هذا الغزو، وما أعقبه من احتلال ودمار بداية القضاء على دولة إسلامية زاهرة حيث حلت الفوضى والخراب ليس في النواحي الاقتصادية فحسب، بل تعداه إلى كافة مرافق الحياة وصار هذا الغزو لا يقل وحشية وأثرا عن الغزو المغولي لبغداد في عام ١٢٥٨م(١٣).

لقد عطل هذا الغزو مسيرة الحضارة الإسلامية وأدى إلى عزل السودان الغربي، فانهارت اقتصادياته وتشرد علماؤه، وحبس منهم من حبس، وفرّ من استطاع الفرار إلى المشرق العربي أو إلى الشمال الأفريقي وصادر المغاربة أموال العلماء وحبسوهم أو قتلوهم، و عاثوا في الأرض فسادا، وبدأت غارات الطوارق على هذه المراكز الحضارية، وانقسمت الدولة الإسلامية في غربي القارة إلى عدد من القبائل المتنافرة والمتناحرة، والتي اتخذت من السلب والنهب والسطو أسلوبا للحياة وسط هذه الفوضى الشاملة(١٤).

عاد السكان إلى الديانات المحلية، وعادت الوثنية تنشب أظفارها من جديد في هذا المجتمع الإسلامي المتهالك، وصار الإسلام غريبا بين هذه الشعوب وتسربت البدع والخرافات وقد تدهورت أحوال الدعوة وكانت الفترة من الغزو المراكشي وحتى أوائل القرن التاسع عشر من أكبر التحديات للدعوة وللمسلمين عامة(١٥).

لكن الدعوة صمدت لهذا التحدي، وكانت الصخرة الصلدة التي واجهت هذه الموجة العاتية، وامتصتها، وخرجت منها أشد قوة وثباتا في مطلع القرن التاسع عشر عندما أعلن أحد رجال الدين في شمال نيجيريا حركة الإصلاح الكبرى لإخماد البِدَع وإحياء السنة المحمدية.

فمن هو هذا الزعيم المسلم؟ وما هي الظروف التي دعته إلى إعلان حركته

الجهادية؟ وما هي الآثار التي أفرزتها هذه الدعوة الإصلاحية؟

ثالثًا : الشيخ عثمان وجهوده في نشر الإسلام في غربي القارة :

يُعَدُّ الشيخ عثمان بن فودى من أكبر دعاة الإصلاح في غربي أفريقيا في القرن التاسع عشر، وقد بدأ دعوته الإصلاحية في إمارة جوبير إحدى إمارات الهوسا ـ تلك الإمارات التي دخلها الإسلام في القرن الرابع عشر لكنها ظلت على وثنيتها حيث مارس الحكام الوثنيون مراكز السلطة والنفوذ، وصار الصراع شيئا مألوفًا وعاديًا في هذه المنطقة، وأصبحت مناطق غربي أفريقيا بعد الغزو المراكشي عام ١٥٩١م تعيش في حالة من الفوضى والتفكك واستمرت على هذه الحال حتى أوائل القرن التاسع الهجري وتشابهت إلى حد كبير مع أحوال المشرق العربي وكأن الأحداث قد اصطلحت على أن تجعل العالم الإسلامي كله في هذه الفترة نهبا للفوضى والعنف والانقسام(١٦).

فلقد أصاب العثمانيون في المشرق العربي الضعف وطمع فيهم الطامعون من الأوروبيين وتعرض العالم الإسلامي لموجة جديدة من الاستعمار الغربي الذي يتربص بالمسلمين في كل مكان ويستعد لاقتطاع ما طاب له من أرضه، ولم يسلم غربي أفريقيا باعتباره جزءًا من العالم الإسلامي ـ من هذه الآثار المدمرة التي أحدثتها تلك الموجات الصليبية المتلاحقة، ولم تعد أحواله في أدق تفاصيلها تختلف عما يدور في المشرق الإسلامي ككل(١٧).

وجد المسلمون أنه لا بد من انتفاضة تخلص الدين من هذه الأخطار، وتخرج المسلمين من رقدتهم، وتوقظ فيهم وعيا بهذه التهديدات حتى يستجمعوا قواهم، ويردوا هذه الموجة العاتية.

وقد انقسم المصلحون إلى فريقين: أحدهما أحس بما في الثقافة الغربية من خير قد يفيد جمهور المسلمين فسعوا إلى الإصلاح، وتقريب الهوة بين الثقافة

الإسلامية والحضارة الغربية، وصار هؤلاء المجدّدون يسعون إلى تحرير الإسلام من جموده والقضاء على القيود التي فرضها الفقهاء على المعرفة، وظهر هذا في حركات تجديد محمد عبده في مصر، ومحمد إقبال في الهند، وخير الدين في تونس وابن باديس في الجزائر.

أما الفريق الآخر فقد وجد أنه لا منجاة من الضعف والتخاذل الذي شاع في الحياة الإسلامية في ظل الخلافة العثمانية إلا بالعودة إلى السلف الصالح أي دعوة إلى ماضي الإسلام المجيد، ورأى المصلحون أنه لا بد من تجنيد طاقات المسلمين لإنقاذ العالم الإسلامي من هذا الخلل، وأنه لا بد من خطوة فكرية تحرر الدين من كل هذه الأخطار الجامدة، وتبعث في النفس روحا جديدة تعيد للمسلمين أمجادهم، وتضع حدا لهذه الحملات التي تتحدى الإسلام منذ بدء الدعوة الإسلامية في القرن السابع الميلادي، وظهرت أفكار الشيخ محمد بن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية والتي تدعو للعودة إلى السلف الصالح وإلى الكتاب والسنة، فكانت حركات إصلاحية مثل حركة ابن تيمية وغيرها من حركات الإصلاح كالسنوسية في ليبيا والمهدية في السودان، وحركة عثمان بن فودي في بلاد الهوسا بنيجيريا(١٨).

وإذا كان المصلحون في المشرق العربي قد حاولوا العودة إلى ماضي الإسلام وحضارته لمواجهة هذه الموجة الاستعمارية القادمة من الغرب، فإن حركات الإصلاح في غربي أفريقيا اتخذت شكلا جديدا، حاولت من خلاله البحث عن الوسائل التي تعود بالإسلام إلى نقائه، وتعديل مساره ليساير الآراء الوافدة في الوقت الذي تسعى فيه هذه الحركات إلى ترسيخ مبادئ الإسلام لمواجهة الشرك والإلحاد، والبعد عن الإسلام الصحيح.

ومن هذا المنطلق صارت حركة عثمان بن فودي وخلفائه في لحمتها وسداها

دعوة لمواجهة الشرك والتصدي للغزو الاستعماري الذي يستهدف في المقام الأول حضارة الإسلام والمسلمين(١٩).

ظهر الشيخ عثمان في إمارة جوبير إحدى إمارات الهوسا في بيت علم وثقافة، تربى تربية إسلامية خالصة على أيدي عدد كبير من العلماء والفقهاء، وتفتح ذهنه على أحوال هذا المجتمع فشاهد البدع والخرافات التي لا تمت للدين بصلة، طاف مناطق غربي القارة ساعيًا للعلم والدراسة، ولما اكتملت مداركه انتقل إلى مرحلة نشر الدعوة الإسلامية، وقام بالوعظ والإرشاد، واتصل بالحكام في هذه الإمارات على أمل أن يقيم تحالفا معهم لنشر الدعوة. واتجه إلى أمير جوبير، وبيّن له الحق والباطل، وشرح أسس الدعوة الإسلامية الصحيحة، وطلب منه العون لإحياء الدين، وإقامة العدل، واستجاب له هذا الحاكم ويدعى باوا، وعهد إليه بالفتوى والإرشاد، وأخذ الشيخ ينشر الدين ويشرح آراءه الإصلاحية، وبدأ يحاور العلماء ويناظر الفقهاء، ويرد عليهم بالحجة والبرهان الساطع(٢٠).

وكان الشيخ مولعًا بالعلم والعمل معا حتى لقب بذي النورين ــ العلم والعمل ـ وظل هذا الولع يلازمه طوال حياته، بل صار الشيخ منتجع الروّاد، ورافع لواء العلم والدين، فأحيا السنة وأمات البدعة، وقد وجد فيه العلماء خطرا عليهم، فأكل الحقد قلوبهم، وحاولوا الوقيعة بينه وبين الحاكم على أساس أن الشيخ يسعى لبناء مجتمع إسلامي(٢١).

وعندما توفي هذا الحاكم كانت نواة المجتمع الإسلامي تبلورت، ولما خلفه ابنه نافاتا أذهلته هذه الحركة الإصلاحية، كما انزعج لتلك الأعداد التي تدخل تباعا في الدين الإسلامي، ولم يستطع أن يخفي حقده على الشيخ وأتباعه وأصدر في لحظة غضبه مرسوما يطالب الشيخ بأمور معقّدة، هدفها عرقلة الدعوة

الإسلامية والقضاء على جهود الشيخ لنشر الإسلام وجـاء في مرسومه ثلاثة أمور غاية في الغرابة وهي:

أولها: ألا يعظ أحد إلا الشيخ نفسه.

وثانيها: ألا يدخل الإسلام إلا من ورثه عن أجداده.

وثالثها: ألا يلبس أحـد العمامة ولا تضرب امـرأة بخمارها على جبينهـا بعد هذا المرسوم(٢٢).

كان هذا المرسـوم دعوة إلى السفور وخلع الحجـاب والحدّ من نشاط الـدعوة الإسلاميـة، كما كان تحديًا للإسـلام والمسلمين الذين يزدادون مع الأيام، وكان من الممكن أن يعترض الشيخ على هذه الأوامـر، لكنه أدرك أن الطـريق طويل، وأن الدعـوة في حـاجـة إلى التماسك والمؤازرة، فقبل المرسوم، وهـو يعلم علم اليقين أن الدائرة سوف تحل على المشركين، وأن دعوته لرفع راية الإسلام ستنتصر على هؤلاء الوثنيين(٢٣).

وشاء الله أن يرحل هذا الحاكم قبل أن يشهـد آثار مرسومـه الجائر، وتولى ابنه يونفا وهو تلميذ الشيخ عثمان وأحد الـذين درسوا على يديه، ولذا أحس الشيخ بأمان واستبشر الخير على أيدي تلميذه الذي ألغى مرسوم والده، وسمح للشيخ بمواصلة نشاطه في الوعظ والإرشاد، ونشر الدعوة الإسلامية.

عاد رجـال الشيـخ يمارسـون نشـاطهم، وازداد الإقبـال على دروس الشيخ ومجالسه، وأخـذ ينشر الدعوة في إمـارات أخرى مثل زمفـرا وكيب، ومع ازدياد الأعـوان، بدأ الحقـد يتسرب إلى يـونفـا الذي أحس بخطـورة الشيخ على ملكـه وسلطانـه فانقلب رأسـا على عقب، وبدأ يضطهـد المسلمين بل ويهاجم القرى المسلمـة في شهـر الصيـام، وقتل النـاس وهم نيـام، وأخـذ يقبض على زعماء

المسلمين، واضطر بعضهم إلى الهروب إلى معسكر الشيخ خصوصا أحد الأتباع المخلصين ويدعى عبد السلام، والذي كان يونفا يسعى للقبض عليه، والتنكيل به(٢٤).

طلب يونفا من الشيخ عثمان تسليم عبد السلام، لكن الشيخ رفض، وازداد حنق يونفا فأمر الشيخ بترك الجماعة والعيش في المنفى بعيدا عن أعوانه، وبالطبع رفض الشيخ وفضل الرحيل بكل جماعته إلى مكان يدعى جودو حيث تألفت قلوب هذه الجماعة على غير أرحام، بل كان لحمة العلم ورابطة الدعوة نسبا يربطهم، ولم يكن عامل الوطنية أو القومية هو الرباط بل كانوا من مختلف بلاد الهوسا هدفهم نشر الإسلام والهجرة في أرض الله الواسعة.

ردّ يونفا على هذا التصرف حيث طلب القبض على الشيخ وأعوانه، وحرق قرى المسلمين، والقضاء على هذه الجماعات الخارجة عن إرادته. وفعلا أخذ أمراء الهوسا يتعقبونه حيثما ذهب، يقطعون الطرق الموصلة إليه، وينهبون أمواله، ويتهيأون لحربه، وكان على أتباع الشيخ البحث عن عمل يواجهون به هذا الخطر الذي يتوعدهم وتلك الحرب لاستئصال شأفتهم.

لم يجد أتباع الشيخ بدًّا من مبايعته على الجهاد، وطاعة الله ورسوله، وحمل الشيخ لقب أمير المؤمنين، وأصدر وثيقة أهل السودان باعتبارها إعلانا رسميًّا للجهاد في سبيل الله، واحتوت على سبعة وعشرين بندا تدور كلها حول وجوب الجهاد، ومحاربة الكفار، وقتال البغاة، ومن ثم انتقل الجهاد من مرحلة الدعوة السلمية إلى الحرب السافرة.

وكان على الشيخ التصدي لهذا التحدي الذي استهدف القضاء على الدعوة الإصلاحية وصارت الحرب هي الفيصل الوحيد في هذا المضمار.

وبدأت الحرب بين الطرفين، وشن أمير جوبير هجومًا على القرى الإسلامية

وتجلت شجاعة زعماء الجهاد في أكبر تحديات تواجه المسلمين في هذه الفترة من كفاحهم من أجل نشر الدعوة الإسلامية(٢٥).

وفي أول لقاء بين الطرفين وعلى ضفاف بحيرة تـابكين كوتوا أطبق المسلمون ـ رغم قلـة عـددهم ـ على قـوى المشركين وحققـوا أولى انتصـاراتهم، وتـوالت الانتصارات، وصارت الحرب سجالا بين الطرفين ابتداء من عام ١٨٠٤م وحتى عـام ١٨٠٨م وهو العـام الذي دخلت أفـواج المجـاهدين إلى عـاصمة الإمـارة وتدعى الكالاوا، وقتلت يونفا وأعوانه، وسقطت الإمارات الواحدة تلو الأخرى في أيدي المجـاهدين، وأعطى الشيخ لأعوانـه أعلاما لإعـلان الجهاد في مختلف منـاطق بـلاد الهوسـا، ودانت لـه كل المنطقـة، وتشكلت لأول مـرة أكبر دولـة إسلامية في غـربي أفريقيا حتى بلغت مساحتهـا حوالى ١٨٠,٠٠٠ ميل مربع، ويقطنها عشرة ملايين نسمة(٢٦).

ونجح الجهاد، وتم القضاء على الوثنيين وأصبحت في حكم المسلمين، وبدأ الشيخ يرسي دعائم الدولة الإسلامية الفتية، وصارت معارك الشيخ عثمان لنشر الدعوة الإسلامية أم المعارك الإسلامية حيث صارت هذه الدعوة نموذجا لغيرها من حركـات الإصلاح والتجديـد في مناطق كثيرة من غربي القـارة، وحيث جاء قواد مسلمون يستلهمـون من حركة الشيخ عثمان العون والمدد، وقامـوا بحركات مماثلة، وصار القرن التاسع عشر في غـربي القارة هو قرن التحدي والصراع ضد قوى الوثنيين، وقوى التكالب الأوروبي على أفريقيا، ويحدثنا تاريخ المنطقة عن زعماء الجهاد أمثال الحاج عمر الفوتي التكروري في السنغال، والشيخ أحمد ولوبو في ماسينا، وساموري توري في غينيـا وغيرهم من زعماء الجهاد الذين وقفوا بحزم ضد القوى الوثنية، وقوى الصراع الأوروبي(٢٧).

وباختصار كـانت الدعـوة تجربة رائعـة وقدوة حسنـة اقتفى آثارهـا كثير من

حركات الإصلاح والدعوة إلى الإسلام الصحيح .

رابعًا : آثار الجهاد الإسلامي :

لقد واجه المسلمون هذه التحديات وكانت مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي وغيره من الزعماء قد أسهمت في نشر اللغة العربية ، وجعلها ينبوعًا للثقافة والفكر ، وصارت مناهج التعليم في معظم مناطق غربي القارة تهتم بشكل كبير بتحفيظ القرآن الكريم وتفسيره باللغة العربية ، كما أسهمت المؤلفات في شرح كل المسائل الشرعية بشكل مبسط(٢٨) .

ظهرت الخلافة الإسلامية في هذا الجزء من أفريقيا ، وحمل زعماء المسلمين لقب أمير المؤمنين ، وصارت الشريعة الغراء منهاج الحياة في هذه الأجزاء ، وواصل خلفاء عثمان مسيرة الجهاد لنشر الدين الإسلامي ، وتكوّن مجتمع كامل ومتكامل ، وانتشر لواء الأمن والسكينة في ربوع هذه المنطقة بعد أن كان منطق السيف والحراب هو السائد في هذه الجهات ، وتعد نعمة السلام والأمان من أهم آثار هذه الحركة الإصلاحية التي قضت على شبح الوثنية الذي ظل يخيم على هذه المنطقة عدة قرون ، وبددت هذه الدعوة الإصلاحية الظلام وحل نور الإسلام في غابات وشواطئ الأطلسي . ويكفي هذه الحركة الإصلاحية فخرًا أنها حولت منطقة جهادها إلى أكبر بؤرة للتجمع الإسلامي في أفريقيا الغربية بخاصة ، والقارة كلها بشكل عام حيث وصل عدد المسلمين في نيجيريا وحدها أكثر من ثمانين مليونا من المسلمين ، ناهيك عن أن مناطق الجهاد الأخرى التي قبلت التحدي وأعلنت الجهاد قد جعلت من دولها مراكز إسلامية هامة حيث بلغ عدد المسلمين مثلا في السنغال أكثر من ٩٥٪ وفي الصومال ١٠٠٪ والنيجر ٩١٪ وجامبيا ٨٥٪ وغينيا ٩٥٪ ، ولو قارنّا هذه النسب مع دول لم تشهد حركات الجهاد لوجدنا أن نسبة المسلمين تصل في أنجولا مثلا ٢٥٪ وفي

بتسوانالاند ٥٪ ، وفي غينيا الاستوائية ٣٤٪ ، وفي غانا ٤٥٪ ، وفي ليبيريا ٣٠٪ ، وفي ناميبيا ٦٪ ، وفي سوازي لاند ٩٪ .

إن هذه الحركات الجهادية الإصلاحية أقامت دولا إسلامية قوية وطبقت الشريعة الإسلامية ، وتحدت القوى الوثنية ، ووضعت نظما ثابتة للحكم والإدارة ، وعادت الألقاب الإسلامية مثل الوزير والقاضي والمحتسب ، وعاش الناس في ظل نظم إسلامية قوية لم يجد المستعمر حين سيطر على هذه البلاد إلا أن يبقي على هذه النظم ويطورها ويتخذها أسلوبا للحكم طوال الحقبة الاستعمارية(٢٩).

لكن رغم رسوخ هذه النظم الإسلامية بعد هذه التحديات القوية نعود ونسأل :

هل توقف التحدي للقوى الإسلامية في غربي القارة؟

والإجابة ــ طبعا ــ بالنفي ، فالتحدي للدعوة لا يزال قائما لأن الجهاد الإسلامي لا يزال يجابه تحديات لا تقل عنفا عما حدث من صراعات سابقة . أو منذ أن خرج المسلمون من الأندلس بعد سقوط غرناطة في عام ١٤٩٢م .

استمرت موجات التحدي للقوى الإسلامية ، وبلغت هذه التحديات ذروتها طوال القرن التاسع عشر ، لكن رجال الدعوة وقفوا صامدين أمام هذا التحدي . وإذا كانت حروب المسلمين قد استنزفت الكثير من مواردهم وطاقاتهم ، وامتصت جانبًا كبيرًا من قدراتهم على الابتكار والإنجاز الحضاري إلا أن هذا لم يفقد رجال الدعوة حماسهم ولا رغبتهم في مواصلة حركة المدّ الإسلامي المتلهفة دوما إلى الانطلاق والتحدي .

وبعد، فما أحوج الأمة الإسلامية إلى مثل هذه الحركات الإصلاحية لأن

أفريقيا لا تزال ميدان تسابق بين القوى الخارجية، ولا تزال الملل والنحل تسعى لكسب أرض جديدة في أفريقيا، أو تثبت قدما لها على حساب الإسلام والمسلمين. ولو عرفنا أن الكنيسة ترصد في كل عام أكثر من ثلاثة مليارات دولار من أجل عمليات التنصير في القارة، وأنها تجند أكثر من ١٢٠ ألف منصر لتقديم الخدمات للذين يعتنقون المسيحية لأدركنا مدى الخطر الذي يطبق على المسلمين، علينا أن نقف صفا واحدا لكي نتفهم هذا التحدّي ومغزاه، وأن نصمد في وجه القوى الباغية وحتى نثبت أننا خير أمة أخرجت للناس قولا وعملا، وأن يكون تماسكنا إيانا منا بالخطر الذي يحيط بنا في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الإسلام والمسلمين.

وأخيرا أرجو أن تكون هذه الدراسة المتواضعة لجهاد المسلمين والتحديات التي تواجههم في غربي القارة بداية صحوة إسلامية تدرس فيها ديمومة الدعوة وصيرورتها حركة دينامية تغذي الفكر الحضاري لهذا التراث الإسلامي، وألا نقف جامدين أمام التحديات، وكفى زعماء الجهاد الإسلامي فخرا أنهم فجّروا طاقات أمتنا، وأعادوها إلى السلف الصالح، وأثبتوا أن الإسلام بخير، وأنه قادر على المواجهة والتصدي لأية غزوة استعمارية.

وفقنا الله إلى مزيد من الدراسات عن الجهاد والتحديات لأمة الإسلام في أماكن مختلفة من أرجاء العالم الإسلامي.

• • •

الهوامش

(١) الإصطخري: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الإصطخري: «المسالك والممالك» تحقيق محمد حلمي عبد الجليل ومراجعة شفيق غربال، القاهرة ١٩٦١م ص ٣٤.

(٢) حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٣، ص٢٢٣.

(٣) Fage, J.D.: West Africa. p. 16.

(٤) Barth, H. Travels and Discoveries in North and Central Africa in the Years 1849 - 1855, London 1858, Vol. IV, p. 579.

(٥) حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، مطبعة مصر (د. ت) ص ٢٠٠.

(٦) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، بولاق ١٢٨٤ هـ الجزء السادس، ص ١٨٢.

(٧) أبو عبيد الله البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، ص ١٧٤.

(٨) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب، وتاريخ مدينة فاس، ص٧٩.

(٩) انظر دولة المرابطين ودورها: حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، القاهرة ١٩٥٧م.

(١٠) حول مملكة غانا ودخول المرابطين بها انظر: إبراهيم طرخان: إمبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة العامة للتأليف والنشر ١٣٩٠هـ ص ٤٨ ـ ٥٢.

(١١) Trimingham, J.S: Islam in West Africa, p. 13.

وأيضا انظر: إبراهيم طرخان: دولة مالي الإسلامية، ص ٤٢ ـ ٤٥.

(١٢) محمد أنور توفيق أبو علم: دولة صنغى الإسلامية ـ تطورها الاقتصادي والاجتماعي والحضاري ١٤٩٣ م ـ ١٥٩١م، رسالة ماجستير غير منشورة بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية، بجامعة القاهرة ١٩٧٧م، ص ١٠٤ ـ ١٣٠.

(١٣) Duboi, F. : Tombоctu, the Mysterious, London 1899, pp. 252 - 259.

(١٤) حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ص ٢٣٠.

(١٥) السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله بن عامر: تاريخ السودان. نشره وعلق عليه هوداس، باريس ١٨٩٨، ص ٧٢.

(١٦) Willis, J.R: Jihad Fi Sabil Allah, Journal of African History, Vol. VIII. No I.1967, p. 400.

(١٧) حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص ٢٥٣.

(١٨) عبد الله عبد الرازق إبراهيم: الإسلام والحضارة الإسلامية في نيجيريا، القاهرة ١٩٨٥، ص٣٣.

(١٩) Hiskett, M: The Sword of the Truth, London 1973, p. 131.

(٢٠) محمود سمير التابعي: عثمان بن فودى، رسالة ماجستير غير منشورة بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية عام ١٩٧٦ ص ٤٠ ـ ٦٥.

(٢١) آدم عبد الله الألوري: الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودى ـ نيجيريا ١٩٧١، ص ٣٦ وأيضا:

Adeleye, R.A: Power and Diplomacy in Northern Nigeria, London 1971, p.32.

(٢٢) محمد بلو بن عثمان: أنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، القاهرة ١٩٦٤، ص ٩٦.

(٢٣) Last, M: The Sokoto Caliphate, London 1967, p.13.

(٢٤) Ki Zerbo, Joseph: Histoire de l'Afrique Noire, Paris 1972, p. 361.

(٢٥) Anene, C.J.: Africa in the 19 th and 20 th centuries, London 1966, p.298.

(٢٦) Fage, J.D.: A History of Africa, London 1978, p.200.

(٢٧) انظر هذه الحركات ودورها في الجهاد في عبد الله عبد الرازق إبراهيم: المسلمون والاستعمار الأوروبي لأفريقيا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت العدد ١٣٩ يولية ١٩٨٩.

(٢٨) حسن عيسى عبد الظاهر: الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفولاني، السعودية، ١٩٨١م، ص ٢٠٨ـ٢١٠.

(٢٩) Hodgkin, Thomes: Nigerian Perspectives, London 1960, p. 39.

المراجع

أولا : رسائل جامعية غير منشورة :

١) محمد أنور أبو علم : دولة صنغى الإسلامية ـ تطورها الاقتصادي والاجتماعي والحضاري ١٤٩٣م ـ ١٥٩١م، رسالة ماجستير غير منشورة ـ معهد البحوث والدراسات الأفريقية ـ جامعة القاهرة ١٩٧٧ .

٢) محمود سمير التابعي، عثمان بن فودي، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ـ جامعة القاهرة ١٩٧٦ .

ثانيا : المراجع العربية :

١) إبراهيم طرخان : دولة مالي الإسلامية، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٣م.
ـ إمبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة العامة للتأليف والنشر ١٣٩٠هـ.

٢) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، المغرب ١٦٣٦م.

٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، بولاق ١٢٨٤هـ.

٤) أبو عبيد الله البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب طبعة الجزائر ١٩١١م.

٥) الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الإصطخري : المسالك والممالك، تحقيق محمد حلمي عبد الجليل ومراجعة شفيق غربال، القاهرة ١٩٦١م.

٦) السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله بن عامر: تاريخ السودان، نشره وعلق عليه هوداس، باريس ١٨٩٨م.

٧) آدم عبد الله الألوري : الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودى، نيجيريا ١٩٧١م.

٨) حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، القاهرة ١٩٦١م ـ قيام دولة المرابطين، القاهرة ١٩٥٧م.

٩) حسن عيسى عبد الظاهر: الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفولاني، السعودية ١٩٨١ .

١٠) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب، مطبعة مصر (د. ت).

١١) عبد الله عبد الرازق إبراهيم : الإسلام والحضارة الإسلامية في نيجيريا، القاهرة ١٩٨٤م.